تقنية المقابلة في كتاب ب. بورديو: بؤس العالم

أ.د بوبكر بوخريسة
قسم علم الاجتماع
جامعة باجي مختار-عنابة

ملخص

في مطلع التسعينات من القرن العشرين، أشرف عالم الاجتماع الفرنسي ب. بورديو على إجراء مجموعة من الأبحاث الميدانية حول إشكالية البؤس في المدن الكبيرة الفرنسية. وعقب ذلك، طالب ب. بورديو من خلال المؤلف الجماعي الذي يحمل عنوان "بؤس العالم" (1993) بضرورة تطبيق أسلوب جديد في إجراء المقابلات الميدانية، متجاوزا بذلك -وبشكل ممنهج- قواعد المنهج العتيقة، المتداولة والشائعة في السوسيولوجيا تحديدا، مثل: البناء المسبق للموضوع وصياغة الفرضيات، إشكالية حياد الباحث وضرورة توظيف منهج تحليل المحتوى (المضمون) على معطيات الدراسة. ويمكننا أن هنا نستعرض مجموعة القضايا المنهجية التي عالجها هذا المؤلف الضخم، وبيان أن ب. بورديو ذاته، رغم شهرته العلمية، قد وقع في انحرافات إشكالية لطالما حاربها مثلما هو شأن المقابلة غير الموجهة أو سبر الآراء. وهكذا، نشأ الالتباس بين أجناس: الأدب، السياسة والسوسيولوجيا. وهذا ما يولد لدينا الانطباع بأن علم الاجتماع تتمثل مهمته الأساسية في التقاط الشواهد، بتطبيق "التخاطب الساذج"، من أي فرد حول أي موضوع ووضعها هكذا، في متناول الجمهور...

الكلمات المفاتيح: المقابلة، الحياد الموضوعي، تحليل المحتوى، "التخاطب الساذج".

Résumé

Dans les années 1990, Pierre Bourdieu a dirigé un ensemble de travaux et d'enquêtes sur le terrain sur le thème de la vie misérable dans les grandes agglomérations françaises. Ainsi, il contribua dans un ouvrage collectif sur "La misère du monde" (1993), à mettre l'accent sur une nouvelle manière de faire des entretiens, mettant en cause les principes fondamentaux des méthodes particulièrement utilisées en sociologie, allant de la construction de l'objet de recherche aux hypothèses, ainsi que la neutralité de l'enquêteur, comme la nécessité d'une analyse de contenu. On essaiera dans ce qui va suivre, de démontrer par la même occasion que P. Bourdieu malgré sa notoriété scientifique, a introduit des biais tout aussi problématiques (voir critiquables) que ceux qu'il n'a cessé de mettre en cause, comme c'est le cas de l'entretien non directif ou du sondage d'opinion. Ainsi naquit la confusion entre les genres: littéraire, politique et sociologique. Tout ceci crée l'impression que la sociologie consiste à recueillir, -en appliquant la « conversation ordinaire »-, les témoignages de n'importe quel individu sur n'importe quel thème et les mettre ainsi à la portée de tous le monde…

Mots clés: Entretien, neutralité objective, analyse de contenu, conversation ordinaire.

Abstract

In the collective work directed by Pierre Bourdieu on "La Misère du Monde"(1993) the author presents a new way of directing interviews, systematically going against the generally accepted methodology used in social sciences, such as the former construction of the object and the hypotheses, the neutral stand of the interviewer and thus the need to have the content analyzed. There will be an attempt to show that by this means he introduces expedients which are just as problematical as those he wishes to disclaim as regards non-directive interviews or polls. In addition, the confusion he proclaims amongst literary, political and sociological figures is to the detriment of his former claims ; it pays unnecessary credit to the idea that sociology consists in collecting a statement on a normal conversational basis, from anybody, on any subject and handing it over to the general public without further analysis.

Keywords: Directing interviews, the neutral stand of the interviewer, the content analysed, normal conversational basis.

استهلال

شكلت قضية المنهج وتقنياته في مختلف العلوم الاجتماعية، معضلة عند المتخصصين في حقولها الكثيرة والمتنوعة بين من يدعو إلى التجريب ومن ينادي بالتأويل. ومن خلال تجربنا المتواضعة، فإن تقنيات البحث الميدان التي هي العمود الفقري في البحث السوسيولوجي، تمثل محل نزاعات وخلافات لا تهدأ... فقد كتبت مؤلفات عديدة بين أنصار الصرامة المقرفة والتسيب اللامحدود (التأويل)، من الأمريكي ب. لازارسفيلد (P. Lazarsfeld) إلى الألماني هانس–جورج جادامير(Hans-georg Gadamer)... وبين كل هذه النزاعات يضيع الطالب المبتدئ... لقد كانت مناسبة نشر مؤلف "بؤس العالم" (P. Bourdieu et al, Misère du monde, 1993) تحت إشراف ب. بورديو، فرصة سانحة في فرنسا على الأقل، لإعادة إذكاء نار "الفتنة" بين المعسكرين...وبما أن المسألة لا تزيد عن تطور "طبيعي" لهذه التقنيات، إذا ما تعاطاها الأكاديميون...ومع ذلك، فقد كان هذا المؤلف الذي أعاد من خلاله بورديو النظر في تقنية المقابلة، محل استحسان البعض ونقد من البعض الآخر، مما يضفي على هذا الموضوع جاذبية وحيوية استثنائية...لذلك، رغم مرور ما يقارب العشرين سنة على هذا الجدل وددت إعادته إلى الواجهة، للفت انتباه الباحثين الشباب المنتسبين إلى هذا الفرع العلمي، لأن "العلم" لا يعرف نهاية ولا يصل إلى قرار...

I– ظاهرة البؤس في ضواحي المدن الكبيرة

على مدى ثلاث سنوات جاب خلالها فريق من الباحثين السوسيولوجيين الفرنسيين تحت إشراف ب. بورديو أرجاء فرنسا، يلاحظون أشكالا معاصرة من "البؤس الاجتماعي" في الأمكنة التي تطبعها التوترات في التجمعات الحضرية الكبرى، المدرسة وعالم الشغل. وقد أجرى أعضاء فريق البحث 182 مقابلة. هكذا يستعيد كتاب "بؤس العالم" مجموعة من الشهادات التي أدلى بها رجال ونساء، تتعلق "بوجودهم الاجتماعي وظروفهم المعيشية" [1]. يشكل حجم المقابلات التي أجراها فريق البحث أكثر من نصف حجم الكتاب. وتكملها نصوص معلومات وتعليقات من مختلف الأنواع، تمزج بين المعالجات النظرية والمنهجية، المعطيات الرقمية والإدارية، مستخرجات السير الذاتية والمراسلات، الخ. لم تكن طريقة تقديم المقابلات بهذه الكيفية عفوية: "إذ تم تصور المقابلات وبناؤها في شكل مجموعات، يمكننا أن نقرأها على انفراد (مهما كان ترتيبها). وقد تم توزيعها بكيفية تسمح بقراءتها من قبل الأفراد الذين ينتمون لفئات اجتماعية مختلفة؛ أي أولئك الذين يمكن الاتصال بهم (مثل حراس العمارات وسكانها، العمال، الحرفيون والتجار، الخ)" [2]. وينتظم هذا الكم الهائل من المعلومات التي تشكل قرابة 1000 صفحة في ثمانية أقسام، ذات أطوال غير متساوية. القسم الأول بعنوان "فضاء وجهات النظر"، يضع في مشهد الحياة اليومية سكان الأحياء الضخمة، حيث تكثر مظاهر الاحتقان بفعل حياة الجيرة بين الأفراد الذين ينتمون إلى: أجيال، ثقافات وأوساط اجتماعية مختلفة. وفي المقابل، ينقل هذا الكتاب القارئ إلى الولايات المتحدة لكي يتابع تأثير الموقف الاجتماعي بين نصّاب أسود (hustler) من مدينة شيكاغو وأحد مروجي المخدرات من مدينة بورتوريكو [3]. ويروي هذان الشخصان مجرى الحياة اليومية في الغيتو الأمريكي مع مواكب: البؤس، المخدرات، الكحول، الدعارة

والجريمة. وإذا تمت الإشارة إلى طبيعة الاختلافات بين الضواحي الفرنسية ومدن الداخل الأمريكية (inner cities) فقد عرف فريق الدراسة الغيتو بأنه مرآة تعكس بصورة مكبرة ما قد تشهده فرنسا، إذا نفضت الدولة يدها عن تلك الأحياء الضخمة، مثلما حدث ذلك في الولايات المتحدة. وفي القسم الثالث من الكتاب، تم تحليل مظاهر سياسة "استقالة الدولة" عن الأحياء الهامشية.

ويجعل الكتاب من قضية اتجاه الدولة نحو الليبرالية الجديدة وتراجع الخدمات العمومية، الأسباب الأولى في تطور الضواحي التي تتميز بمشكلات متعددة. يشير هذا الجزء إلى الصعوبات التي يلاقيها أعوان الدولة، عمال الخدمة الاجتماعية، رجال الشرطة والعدالة الذين يكونون في موقف تفاعل واتصال مباشر مع تلك المجموعات السكانية وهم يفتقرون إلى الوسائل الكفيلة بأداء مهماتهم بكيفية مرضية. بينما يرسم القسم الموسوم "انحطاط"، حصيلة تلك التحولات على سوق العمل والكوارث التي خلفتها البطالة والفقر عند العمال والفلاحين أو المقاولين الصغار وعمال المكاتب. انتشر هذا التردي ومس كافة أشكال التضامن الجماعي، جراء فقدان الأمل في النقابات والأحزاب. كما يعطي الجزء المخصص "للمنبوذين في الداخل" الكلمة للمعلمين والشباب الذين يدرسون في المتوسطات والثانويات التقنية والمهنية. ويصور هذا القسم التأثيرات المنحرفة التي خلفتها سياسة التعليم والتكوين في فرنسا التي تدعي أنها تعطي الفرصة لنسبة (80 %) من هذه الشريحة للحصول على شهادة البكالوريا... ولكنها لا توفر لهم عند تخرجهم سوى شهادة مهنية، فقدت قيمتها في سوق العمل. إن الأمر يتعلق بمؤسسة مدرسية تغذي طموحات كبيرة، لكنها ليست متكيفة مع شروط توظيف فئات اجتماعية، منبوذة من المجتمع الفرنسي. أما الجزء المعنون "تناقضات الميراث"، فهو الجزء الأكثر حميمية وشخصية. يكشف فريق البحث من خلاله، كيف أن الأسرة التي تشكل مبدئيا "الجزء العام من صور المعاناة الاجتماعية" [4]، تمثل بيئة الأوامر والنواهي المتناقضة بامتياز، تتصارع فيها طموحات الأبناء ومشروعات الأولياء، زيادة عن ظاهرة الهجرة و"الصدمة الثقافية" بين ثقافتين" متنافرتين. بينما يتناول قسم الـ"فهم" («Comprendre») المشكلات النظرية والمنهجية التي أفرزها هذا المشروع البحثي. وتوضح الحاشية السفلية من هذا القسم، الغاية السياسية الدراسة التي تتمثل في: لفت انتباه الحكام والساسة نحو هذا العالم البائس الذي انطوى تدريجيا على نفسه، صراعاته الداخلية، مشكلاته ورهاناته الخاصة. وبهذا يعتقد ب. بورديو أنه يمكن توظيف السوسيولوجيا في خدمة الفعل السياسي.

ملاحظة أخيرة يمكن الإشارة إليها، بصدد هذا الكتاب الضخم. فهناك عدة كيفيات لمطالعة هذا الكتاب. إن بعض الأشخاص الذين سيطالعونه، سيقرؤونه بوصفه "مجموعة حكايات، أخبار أدبية واجتماعية ترويها ممرضة تعمل في مستشفى عمومي، أو عامل أو طالب قانون يعاني من البطالة والتهميش، أو ناظر مدرسة يعاني من العنف الحضري، شرطي بسيط في ضاحية فقيرة، الخ" [5]. وبعضهم قد ينظر إلى الكتاب باعتباره بيانا مرشدا من أجل النشاط السياسي. وآخرون في النهاية –قد نكون نحن من بينهم– سيحتفظون من هذا الكتاب بالجانب الميثودولوجي.

II– تطبيق تقنية المقابلة في كتاب بؤس العالم

يقترح علينا ب. بورديو في هذا المؤلف الجماعي، أسلوبا آخر في إجراء البحث السوسيولوجي الميداني، باستعمال تقنية المقابلة. وإذا كان هناك تراث أدبي مسهب حول هذه التقنية المستخدمة بشكل واسع في العلوم الاجتماعية التي نعثر فيها على مؤلفات المنهجية التي تصف هذه الأداة في حد ذاتها، فإننا نتوفر أيضا على: "أعمال البحث التي تستخدم تلك التقنية ولكن نادرا ما تشير إليها" (Blanchet A. et Gotman A. 1992)[(6)]. إن المقابلة هي تقنية مقاربة يتمثل دورها في إثارة الخطاب والحديث، دون أن يطرح الباحث الأسئلة التي توجه البحث. فكيف يمكننا تحضير وتحليل مجموع المقابلات التي يتم إجراؤها في إطار بحث معين؟ يقدم لنا هذا الكتاب مجموعة من الشروط التي ترتبط بمصداقية المنهج ويحدد الإطار التقني ومبادئ تحليل الخطابات المنتجة.

يتوجه هذا الكتاب إلى طلبة السوسيولوجيا كما يهتم أيضا بكافة الباحثين الذين يستعملون تقنية المقابلة (سيكولوجيا، إثنولوجيا، تاريخ، الخ). وبهذا الصدد، نشير إلى أن كتاب "بؤس العالم" يبدع ويجدد هذه التقنية، إذ يعرض نصوص المقابلات التي أجريت بشكل كامل تقريبا: التعليقات التي كتبت بشأنها والتفكير النظري حول استخداماتها. وهنا نلاحظ أن هذا الكتاب، يخالف بشكل ممنهج كافة المبادئ العامة المتبعة في كتب المنهج ومن جملتها كتاب ب. بورديو نفسه (Bourdieu, Chamboredon et Passeron, Le métier de sociologue) [(7)]. وعليه، فإننا سنتناول هذا المؤلف من زاوية هذا التصور عبر إنجاز وتحليل المقابلات.

1– تحديد موضوع ومفاهيم المقابلات: يثير موضوع هذا الكتاب، إشكالية البؤس والتهميش التي يعاني منها سكان الأحياء الهامشية في المدن الفرنسية الكبيرة. لقد تعلمت أجيال عديدة من الطلبة الفرنسيين طرائق ومناهج وتقنيات البحث من كتاب (le métier de sociologue) لصاحبه بورديو الذي صدر عام 1968. ويتم الإلمام بالظاهرة الاجتماعية بالتغلب على الأفكار المسبقة والقناعات الزائفة التي تطبع المعرفة العامة. ذلك أن: "موضوع البحث [مهما بدا جزئيا ومفتتا] لا يمكن أن يتحدد وينبنى سوى بإشكالية نظرية، تسمح للباحث بأن يخضع مظاهر الواقع الاجتماعي عن طريق السؤال المركزي وصولا إلى المساءلة الممنهجة" [(8)]. لكن كتاب "بؤس العالم" لم يتبع هذا النموذج المنهجي الذي كان بورديو يدع إليه في حقبة الثمانينات، بل سيجد فيه القارئ بالتأكيد نقدا صارما للتمثلات الاجتماعية المضللة والتبسيطية التي تنقلها وسائل الإعلام، سبر الآراء وتقارير الخبراء. وهنا لا يمتلك بورديو كلمات أقسى من التنديد بـ"كافة أنصاف– المهرة الذين يتسلحون بالحس العام الساذج، يتسارعون ويتزاحمون ويصرحون بقناعاتهم إلى الجرائد والمجلات وأمام عدسات الكاميرات، لكي يكشفوا عن ماهية الكيان الاجتماعي الذي لا يملكون أية وسيلة للتعرف عليه وكنهه" [(9)]. لكن ب. بورديو ذاته، لا يجد أي عناء لكي يبني مشروعه الخاص المتمثل في مفهوم "البؤس" في سياق الأعمال البحثية التي خصصت لهذه الإشكالية [(10)]. وقد تم تحديد المقصود بعبارة البؤس "الاجتماعي" التي تشير إلى مختلف "الأكوان الاجتماعية: المكتب، الورشة، المؤسسة الصغرى، الجيرة والأسرة الممتدة" [(11)]. كما تمت الإشارة إلى الطابع النسبي لظاهرة

البؤس، مقارنة ببؤس "المكانة" وبؤس "الحالة". لكن هذا التوضيح لا يعلمنا شيئا كثيرا حول طبيعة الظاهرة وعلاقتها الحقيقية بـ"ألم"، "معاناة" و"تعاسة" الإنسان. إنها قبل كل شيء عبارات مثيرة للجدل، قد تستخدم بلا تمييز في هذا النص. إن مبدأ وحدة هذا الكتاب الذي يعالج موضوعات، مثل: البطالة، العنف الحضري، هوية المهاجرين، التسرب المدرسي، هي التي تغيب عن القارئ.

2- خصائص مجتمع البحث: عند مطالعة هذا الكتاب لن يتمكن القارئ، من معرفة أي شيء عن المقاييس والمعايير التي اعتمدها ب. بورديو وفريق البحث، لتحديد حجم العينة المبدئية وخصائصها. ويعود هذا بالطبع إلى أن الباحث ب. بورديو وجماعته، عندما اختاروا المقابلة فإن المسألة لم تعد تتعلق عندهم بتمثيل العينة، ومن هنا فلا يتم التعامل مع مجتمع البحث بواسطة العينة. ذلك أن المقابلة تسمح بالتوصل إلى المعنى الذي ينير ويوجه الممارسات الاجتماعية والفردية. وبالطبع، قام فريق البحث بتعريف الأشخاص المستجوبين، كما لو أنهم كانوا يمثلون حالات نموذجية، مثل: هذا التلميذ الذي يدرس في الصف الثانوي، ابن "المهاجر" الذي يمثل حالة مثالية، تسهل على الباحث تحليل التحولات التي عرفتها المنظومة التعليمية وأدت إلى زيادة أعداد التلاميذ الذين "تسربوا من المؤسسات التربوية". ويعتبر الشخص المبحوث المعنِي بالأمر بمثابة "عينة" كاملة، يعكس خصائص فئة طلبة التعليم الثانوي [12]. لكن، هنا يمكننا أن نتساءل إلى أي مدى يمكننا أن نعتبر مجموعة الـ 182 تلميذا الذين تم استجوابهم بمثابة عينة ممثلة [ليس بمعنى التمثيل الإحصائي لعينة سبر الرأي الاحتمالية أو المبنية على أساس الحصص] بل من حيث تطابقها مع أبعاد إشكالية الدراسة وفرضياتها المبدئية؟ وما هي المقاييس التي اعتمدها ب. بورديو وفريقه لانتقاء ستين (60) حالة، وقع اختيارهم عليها في النهاية؟ تشكل مفردات أو وحدات عينة البحث، تنوعا كبيرا من المجتمع الأصلي حسب متغيرات: السن، الجنس (ذكر، أنثى)، الأصل الإثني، الوسط الاجتماعي والانتماء السياسي. إن الشخص الذي ليس له مسكن قار (sans domicile fixe) والعامل التقني المتعدد الاختصاصات، المناضل الشيوعي ومناصر اليمين المتطرف، كلهم يتواجدون في هذه العينة جنبا إلى جنب. لكن ما هو القاسم المشترك في اختيار وحدات هذه العينة، بدلا من أفراد آخرين غيرهم؟ ولماذا تم تفضيل مقاربة سكان الضواحي وتلامذة المدارس، بدلا من تناول عينات من البيئات الطاردة التي تتسم بالاستبعاد والإقصاء، مثل مؤسسات: السجون، الثكنات العسكرية والمحتشدات؟ لماذا يتم استجواب الأشخاص من أصول مهاجرة، المعلمين وليس المساعدين الطبيين، الفلاحين أو سائقي الشاحنات، المعوقين والمصابين بداء المناعة المكتسب؟ ولماذا لا يوجد ما يشير إلى منظمات المساعدات الخيرية التي تتواجد في الخطوط الأمامية التي تصارع ضد حالات البؤس؟

وهناك سؤال آخر يتعلق بطبيعة بنية وهيكل استمارة المقابلة ذاتها وكيفية اختيار محاور البحث مع وحدات عينة المستجوبين. في هذا الصدد، يبدو أن بورديو كان يفضل "صيغة جديدة" لا تمت بصلة لا إلى ضرورة "التحلي بالحرية الخالصة التي تطبع المقابلة غير الموجهة"، ولا إلى "دكتاتورية الاستمارة" التي تحدد مسبقا حزمة الأسئلة وأنماط الأجوبة المتوقعة [13]. لكن توجد بين هذين القطبين من تقنية المقابلة، أنواع من المقابلة التي تسمى "شبه

الموجهة"، حسب درجة شكلانية إشارة الانطلاقة، وفقا لدليل المقابلة وإستراتيجية تفعيل الحوار. وقد تم التلميح من قبل مجموعة البحث إلى أن هذه المشكلات، قد كانت موضوع صياغة جماعية تمهيدية، وأن "اختيار الموضوعات والنماذج الممكنة للمقابلة وفقا للخصائص الاجتماعية للمبحوث، قد تم فحصها بعناية كبيرة. وجرت مناقشتها في إطار ملتقى ب. بورديو في كوليج فرنسا خلال السنة الجامعية1991-1992. شكلت محصلة هذه النقاشات و"الطبخة" المنهجية، وما يفصل بين التفكير النظري [عن تقنية المقابلات] وأساليب تطبيقها في الميدان، مجموعة أوراق وفصول هذا الكتاب.

3- الحياد الموضوعي: علاقة الباحث بالمبحوث:

سواء ارتكزت المقابلة على الاستمارة أو كانت بصيغة لا مباشرة، فهي تتمثل في مقابلة وجه لوجه بين باحث ومبحوث؛ أي أنها علاقة اجتماعية تؤثر النتائج التي ستفرزها المقابلة. إنها كما يشير إلى ذلك ب. بورديو علاقة لا متساوقة، على مستويين اثنين: "في غالب الأوقات، يبدأ الباحث بتنشيط قاعدة اللعبة (شروط إجراء المقابلة)، يفرض ويحدد مجموعة وطبيعة الأهداف والاستعمالات، بالنسبة للشخص المبحوث على الأقل. ويعكس هذا عند ب. بورديو عنفا يمارسه الباحث السوسيولوجي على الشخص المستجوب. وقد يتضاعف هذا العنف الرمزي: "بفعل لا تساوق اجتماعي، في كل مرة يتحول فيها الباحث إلى مكانة متفوقة على المبحوث في إطار تنظيم يتعلق بمختلف أجناس الرأسمال وبالرأسمال الثقافي تحديدا" (14).

في مرحلة أولى، وللقضاء على تلك العيوب، تخيل مؤلفو كتاب "بؤس العالم"، أن يتبنوا استراتيجيات أخرى بديلة. فقد ارتكزوا على فكرة السير وليام لابوف (Sir William Labov) الذي كان يستخدم الشبان السود، بغية إجراء بحوث حول اللغة المحلية في حي هارليم. استنادا إلى ذلك، وظف مؤلفو كتاب "بؤس العالم"، باحثين "أهالي" أو محليين. وهكذا قاموا بـ"تدريب مجموعة من الأشخاص [على تقنيات البحث] الذين يمكنهم أن يتعرفوا على فئات المبحوثين الذين يرغب بورديو وجماعته، في أن يتصلوا بهم ويجروا مقابلات معهم. وهنا، يعتبر كتاب "التحدث العادي: اللغة في الغيتوهات السوداء للولايات المتحدة" (le parler ordinaire: la langue dans les ghettos noires des États-Unis) للباحث و. لابوف في الوقت ذاته، تدريبا سوسيو-ألسنيا حقيقيا على تقنية المقابلة (15). فقد كان و. لابوف مدعوا إلى توسيع ميدان بحثه: هكذا، دفعت به ضرورة التعرف على حالة اللغة الخاصة بالسود الأمريكيين إلى إعطاء أهمية "للثقافة، التنظيم الاجتماعي والوضعية السياسية لشباب الغيتوهات في الولايات المتحدة".

وبهذا المعنى، نلاحظ أن الفرضيات العلمية لا تنفصل عن الأطروحات السياسية: فلكي يحوّل لابوف موضوع لغة السود الأمريكيين إلى قضية ممكنة، توجب عليه أن ينطلق من التلميح إلى التعارض بين اللغة الرسمية واللغة العامية. هكذا، عندما يقوم عالم فيزيائي شاب بطرح سؤال على عالم فيزيائي شاب آخر يشبهه ويتقاسم معه مجموعة من الخصائص التي تشكل عوامل تفسيرية لممارساته وتمثلاته، فستجد هذه الأسئلة منطلقها في استعداداته المتناغمة موضوعيا مع استعدادات الشخص المبحوث. وللسبب ذاته [على خلاف القواعد المتبعة في العادة] فقد تم السماح للباحثين الشباب باستجواب أقربائهم وأصدقائهم: "هكذا تبنينا

مبدأ ترك الحرية للباحثين، بأن يختاروا عينة الأفراد المبحوثين من بين معارفهم أو الأشخاص الذين يتواصلون معهم. هكذا، يحقق التقارب الاجتماعي شرطين أساسيين من شروط عملية الاتصال "غير العنيفة" مع مجتمع البحث [16].

هذه الفكرة هي فكرة جد مغرية ولكنها تخلق طائفة من العيوب. فإذا كانت العلاقة الشخصية بين الباحث والمبحوث تسهل الاتصال بينهما، فإنها قد تؤثر [بشكل سلبي] في انحراف الاتصال نتيجة للصورة التي يحملها كل منهما (الباحث والمبحوث) عن الآخر والصورة التي يرغب كل منهما تقديمها عن نفسه للآخر. وهنا يكون من السهل على المبحوث، أن يستسلم إلى شخص الباحث المجهول الهوية الذي لن يلتقي به مرة أخرى. وبالفعل من المحتمل ألا يقوم الباحث بتسريب موضوع البحث الذي دار الحديث بشأنه إلى أصدقاء ومعارف مشتركة بينهما. أما بشأن الحياد الموضوعي، فهو ليس وحسب مسألة تمايز طبقي واجتماعي، إذ أن كثيرا من البحوث التي أجريت في الولايات المتحدة في الخمسينيات، قد درست بشكل ممنهج "تأثير الباحث" وأكدت على أن الوسط الاجتماعي والثقافي لهذا الأخير، لا يؤثر بمفرده على إجابات المبحوث فقط، بل أن متغيرات: العمر، الجنس والنوع الإثني، الآراء السياسية والدينية، تؤثر هي الأخرى في طبيعة الأجوبة.

إن تحقيق درجة كبيرة من الانسجام الذي هو رهان تقاطع صدفي بين شخص الباحث والشخص المستجوب، هو أمر مستبعد، لأن أهمية العناصر الهوية بين فرد وآخر، تكون أبعادا متنوعة. وعلى فرض أن ذلك الأمر جائز، فهي تفرز تأثيرات ملتوية. فإذا كان الشخص الذي يخاطبه الباحث يشبهه إلى حد ما، فذلك يعني أنه لم يعد عنده ما يخفيه وما لا يعرفه الباحث سلفا. وهكذا، فإننا سنسقط في حقل المضمر واللامقول الذي يقع بينهما. وبرأي أصحاب هذا الكتاب، هنا يكمن السبب الرئيسي في فشل مقابلاتهم الأولى. ولذلك: "فقد تم التخلي عن عدد معتبر من البحوث التي أجريت في هذه الشروط: فهي لا تقدم أكثر من معطيات اجتماعية–ألسنية، لا تكفي ولا تفي بالغرض" من هذه الدراسة" [17].

4- تقنية المقابلة بوصفها محاورة "عادية": دفعت هذه المعاينة ب. بورديو إلى التخلي عن فكرة العثور على بديل عن الباحث السوسيولوجي والتفكير بجد في الكيفية التي تمكنه، في ظل غياب أية رابطة اجتماعية مع الشخص المستجوَب، من أن يقترب منه. ولكي يتمكن "السوسيولوجي من التواصل مع المبحوث، يجب أن يعترف به بواسطة نبرته في التحدث إليه وبمحتوى الأسئلة التي يطرحها عليه [دون تزييف ولا تملق]. فهو يستطيع أن يضع نفسه في مكانه" وأن يفهمه دون أن يحكم عليه [18]. يؤدي هذا الاستعداد إلى تبني الباحث مشكلات الشخص المبحوث واستعداده لفهمه. ويتطابق هذا مع لغة السيكولوجيا الاجتماعية في عبارة "الغيرية" التي تمثل أساس تقنية المقابلة غير المقننة التي وضعها ك. روجرز (C. Rogers) [19]. إن الهدف من تلك التقنية هو: أن تكون العلاقة التي يطمح الباحث إلى بنائها مع الشخص المبحوث في البداية، مثمنة من أجل ذاتها. إنها تتطلب التودد، التضامن والمشاركة. هكذا، فإن العلاقة التي تنمو هي علاقة خاصة، تختلف عن أجناس العلاقات البينية الإنسانية الأخرى. يتعلق الأمر إذن: بفهم المشكلة وفقا للعبارات التي تطرح بها على شخص فريد من

حيث مميزاته الخاصة ومساعدته على النمو النفسي، باتجاه تحقيق تكيف أفضل مع السياق الاجتماعي، السيكولوجي أو الاقتصادي.

تختلف طبيعة المقابلة، مثلما يتصورها بورديو، جذريا عن هذا الأخير، بقدر ما يدعو فيه إلى التزام أكثر من قبل الباحث. إذ لا يتعلق الأمر وحسب بالمظاهر والتجليات اللفظية وغير اللفظية التي ترمز إلى انشغاله وتأثره بخطاب المبحوث. وأشارت كافة البحوث التي دارت حول تقنية المقابلة غير الموجهة إلى أهميتها: "أي إلى علامات التغذية الرجعية التي يسميها إ. أ. شيجلوف (E. A. Schegloff) أجوبة معطاة (responses tokens). لكن الأمر يتعلق بتدخلات، أسئلة، تعليقات وانطلاقات جديدة للمبحوث، خلال التبادل اللفظي الذي يفضل ب. بورديو تسميته [بشكل ذي دلالة] بالـ"محادثة" بدلا من المقابلة. من وجهة نظره، فإن: "هذه المشاركة التي يندرج عن طريقها الحديث الذي يوعز للشخص المخاطب بالانخراط هو بدوره فيه، هي ما يميز المحادثة المألوفة، عن تقنية المقابلة التي يمتنع فيها الباحث –رغبة منه في تحقيق الحياد– عن أي التزام شخصي" [20]. ونعتقد أن هذا الالتزام يذهب بعيدا عندما يصل الحال عند بورديو إلى أن يقول إلى إحدى مخاطباته وهي تقص عليه مآسيها: "لا أدري، إن كنت أقدر على إحداث معجزة، وبالطبع أنني أرغب في ذلك" [21]. وكلما اقتربت المقابلة من حالة المحادثة، كلما صعب على الباحث أن يميز بشكل عفوي بين ما يصدر من طرف المبحوث وما يقترحه الباحث نفسه. لكن بعد إجراء انقلاب في الإشكالية المبدئية "لم يعد العنف الرمزي" في قلب العلاقة القائمة بين الباحث / المبحوث. وبعدما كانت تلك العلاقة لا متساوية أو متعالية، فقد تحولت إلى علاقة ثناء ومجاملة للشخص المبحوث: "بحيث تمنح له هذه العلاقة موقعا اتصاليا فريدا من نوعه، يحرره من الإكراهات الزمنية التي تثقل التبادلات اليومية وتفتح أمامه مجموعة من البدائل التي تسمح له بالتعبير عن آلامه، عيوبه ومطالبه. هكذا تقدم المقابلة للمبحوث فرصة، لكي يتساءل هو ذاته، حول نفسه ويقدم شهادته: "فقد يحدث للأشخاص المبحوثين [ليسوا أدوات بسيطة بين يدي الباحث] أن يقوموا بإجراء المقابلة. وتكون كثافة وحدة خطابهم بمثابة انطباع وشكل من الارتياح، إن لم نقل أنه إنجاز. فكل شيء فيهم يذكر ويشير إلى "سعادة في التعبير" [22].

في هذا الصدد، هناك ضرورة لتوفر شرطين اثنين: 1) أحدهما ذو طابع أخلاقي. وهنا يأخذ بورديو على عاتقه الصيغة الجميلة عند الفيلسوف سبينوزا التي تقول :"لا يجب التأسف، لا تجب السخرية، لا يجب الكره، لكن يجب الفهم" [23]. هكذا، تمت ترقية المقابلة إلى مصاف الممارسات الروحية التي تستهدف التوصل إلى محادثة حقيقية عن طريق النظر (أو القياس) الذي نلقيه على الآخرين في ظروف الحياة العادية. إنها شكل من الحب الفكري: نظر يستجيب للضرورة على طريقة الحب الفكري في الله؛ أي النظام الطبيعي الذي يعتقد سبينوزا أن الله يمثل فيه الشكل الأسمى للمعرفة" [24]. 2) والشرط الآخر ذو طبيعة معرفية. إن الأمر يتعلق هنا بحرفة السوسيولوجي ومدى معرفته ببيئة المبحوث. إنها النظرة النقدية التي يمكنه هو الوحيد فقط، أن يلقيها على علاقة البحث التي يرتبط بها نجاح المقابلة: "هذا يعني أن الباحث لا يمتلك كثيرا من الحظ، إلاّ إذا توفر على دراية عظيمة مكتسبة أحيانا على امتداد حياته البحثية.

وبصورة مباشرة، إبان المقابلات السابقة التي أجراها مع المبحوث ذاته أو مع مخبرين آخرين" [(25)]. ويمكن الاعتراض على ذلك فقط، بأن هذا "التطبع العلمي" (habitus scientifique) ليس من خصال السوسيولوجي، لكنه أيضا من شيم المؤرخ وعالم السياسة والإثنولوجي. وهنا لابد من الإشارة إلى أن ب. بورديو ذاته، كان باحثا أنثروبولوجيا وباحثا في عالم الاجتماع. وإذا كان هناك من "حرفة" عند السوسيولوجي تسمح له باسترجاع خطاب المبحوث، في السياق الاجتماعي والثقافي، فهناك أيضا حرفة للباحث. إن القدرة على الاستماع إلى الآخر لا تتم بشكل ارتجالي؛ لأن السوسيولوجي الجيد ليس بالضرورة باحثا جيدا.

5- عناصر إشكالية البحث: يتضمن مؤلف "بؤس العالم" مجموعة من المقابلات النموذجية، مثل تلك التي أجراها عبد المالك صياد وفرانسين مويال-دريفوس (A. Sayad et F. Muel-Dreufus) مع مجموعة من المهاجرين الذين تصعب مقابلتهم بامتياز أو نماذج المقابلات التي أجرتها روزلين كريستان (R. Christin) مع مجموعة من النساء. يكون الباحث في مثل هذه المواقف قد خلق علاقة ثقة مع الأشخاص الذين يود استجوابهم، بحيث يسهم بتدخلاته في تحفيزهم على التعبير عن أفكارهم دون تحريفها. تشهد تلك التدخلات على نوع من الألفة التي نشأت على مدى فترة طويلة مع السكان المستجوبين ومعرفة خصائصهم العديدة. وهنا يستحوذ المبحوث على زمام المبادرة، بهدف الاستكشاف والتنقيب ويجد في ذلك متعة كبيرة على ما يبدو. نقف هنا على نموذج من "التحليل-الذاتي" الذي تتم إثارته. ويطالب ب. بورديو بهذا النموذج من المقابلة بكل جوارحه، أين يلعب فيه السوسيولوجي "دوره التوليدي" ويجرد طائفة الفاعلين الاجتماعيين من "حقيقتهم" [(26)]. لكن المقابلات الأخرى التي تتمثل في اللقاءات التي أجراها بورديو مع شباب من الضاحية (أحدهم من أصول عربية **(علي)** والآخر هو **(فرانسوا)** كانت أقل إقناعا.

وقد كسرت تلك التدخلات، بفعل تواترها ونتيجة لطابعها الاستفهامي، وتيرة المقابلة وحفزت المستجوَبين على الاستسلام لأسئلة الباحث. وكان محتوى التدخلات أقل توجيها، إذ تبنى فيها بورديو موقفا مناصرا لقضية الشباب، ضد مؤسسات ضبط الاجتماعي: الشرطة، العدالة والسلطة. وهكذا يقلل الباحث ب. بورديو بشكل أوتوماتيكي، من أهمية السرقات التي يقترفها الشباب من خلال تعليقاته حول المسألة، مثل قولهم: "نعم، كانت السرقات من أجل اللهو" أو "نعم"، نحن نقوم بذلك من أجل القضاء على حالة القلق...". إنه يقلل من وصمهم كمنحرفين، حيث يقول: "إنكم لا تبدون خطيرين جدا"[(27)]. وقد يجد مبررات للشباب الأكبر سنا الذين يتعاطون الكحول والمخدرات، بقوله: "نعم، عندما لا تجدون شيئا يمكنكم القيام به"، "نعم أنا أتفهم ذلك". كما يثني على قوتهم الفيزيقية. وكان يوجه كلامه لأحدهم بقوله: "هل فكّرت في ممارسة الرياضة"، "أنا لا أدري"، "أعتقد أنك قوي". كما يبدي تأثره وتعاطفه معهم بقوة، عندما علم أن أحدهم قد فقد أباه، بحيث يعبر عن ذلك، بقوله: "يا له من شاب مسكين" [(28)].

لقد كانت تدخلاته تقحم في الحديث، عناصر خارجية عن خطاب الشباب. إن بورديو هو الذي اقترح عليهم فكرة عدم وجود ميدان للرياضة، لكن بعدما علم أن هناك ملعبا، فقد أصر على موقفه. وأكد أنهم لا يتوفرون سوى على ميدان لعب وحيد.... وهو الذي ثار أيضا ضد هذا الوضع،

وتساءل كيف لا يسمح للشباب بدخول قاعة ممارسة الرياضة: "نعم كيف تحرمون من استخدام القاعة". وهو يصف برنامج تربص الاندماج المقترح على الشباب، بأنه "فارغ" ولا معنى له. كما أشار إلى طبيعة المعاملة غير السوية التي يتعرضون لها من قبل أصحاب الملاهي الليلة: "نعم هذا صحيح، لكن كيف يسمح لذلك الشاب بالدخول وأنت تمنع من ذلك". وهو الذي يثور ضد تلك المعاملة، بقوله: "إنه شيء قذر. ليس من حقهم فعل ذلك (...). هذا أمر يدفع إلى الثورة" [29]. في حين أن الشباب المعني بالأمر يكتفي فقط بالتعليق على السؤال، بهدوء وبرودة تامة.

إننا ندرك الصعوبة التي يجدها بورديو الأستاذ في كوليج دو فرانس في القضاء على التمييز الاجتماعي (العنصري) الذي يفصله عن شباب الأحياء في الضواحي. فهل يجب عليه أن يبدي، مثل هذه الأنفة الزائدة عن اللزوم؟ إن ذلك يعني ببساطة أن بورديو قد سقط في هذا الشرك الشعبوي: "الذي يرتكز على تحريف خالص وتبسيطي للقيم المهيمنة التي يحللها بازدراء وسخرية كبيرة ك. جرينيان وج-ك. باسرون في كتابهما "العالم والشعبي" (C. Grignon et J-C. Passeron, Le savant et le populaire) [30]. كان ك. جرينيون وج-ك. باسرون يفكران في الغيرية المنزلية، المألوفة والحميمية التي نعايشها يوميا. كيف يمكن وصف الثقافة الشعبية، أي: كيف نتسلح بوسائل تفكيرها؟ هل من الضروري، أن نقوم بمعالجتها بوصفها عالما مستقلا من المعاني، كما توصينا بذلك المدرسة النسبية الثقافوية؟ أم يجب علينا بالعكس، أن ننطلق من آليات الهيمنة الاجتماعية التي تشكلها، مثلما تطمح إلى ذلك نظرية المشروعية الثقافية؟ ما هي المقاربة التي يمكن اختيارها، لكي نستطيع إنصاف مميزاتها الخاصة؟

تفرض علينا فعالية هذين النموذجين المتعارضين [نظرة البؤس والنظرة الشعبوية] أن نحاول تفكير الآخر كآخر أو كأنه طوباوي، مثلما يقول المثل الشعبي "من الشبيه إلى ذاته". وهذا يعني سحب تقنية المقابلة في اتجاه معين، تعمل كل واحدة من حسناته كنسق تدعيمات إيجابية، توحي ضمنيا للشخص المبحوث -بالمعنى الذي يقصده ب. ف. سكاينر (B. F. Skinner) من العبارة- بأن يقول للباحث ما يرغب هذا الأخير في سماعه. وبالتالي فإنها تفرض عليه إشكالية [31]. تستدعي هذه الأسئلة، أجوبة تحليل نفسي على الساخن، إنها تشكل مؤشرات عديدة من أجل "طرح الإشكالية" التي أنجزها الباحث هنا.

III- من السوسيولوجيا إلى الأدب: ثورة على الممارسة التقليدية

قد يجد كل باحث نفسه وهو يقوم بإجراء مقابلات، يواجه صعوبة اختيار تقنية تحليل كيفي أو كمي. ويكون قد تساءل عن المزايا التي يقدمها التحليل المبحثي أو قياس المفردات (lexicométrie)، التحليل البنيوي أو اللغوي. فكيف يمكنه أن يعالج هذا العتاد، بأسلوب صارم وممنهج مع الاحتفاظ بثرائه وتنوعه؟ عمل ب. بورديو وفريقه على فك رموز هذه المشكلة بكيفية أصيلة، بحيث تم عرض المقابلات على القارئ، لكي يتمكن من الاطلاع عليها. وترتبط عملية توزيعها بشرط مضاعف من حيث الوفاء والمقروئية. فقد قاموا بعملية مفاضلة بين مجموعة من المقابلات، حيث أجروا عمليات تقاطع بينها، خففوا شحنة وثقل النصوص من الأقوال المكرورة

والحاكيات الصوتية (onomatopées) والحركات اللغوية (tics) التي تنظم تواتر التعبير الشفهي. كما عمدوا إلى استبعاد المقاطع الإخبارية والنكت الخالصة التي تسمح بالتعرف على الأشخاص المستجوبين. لكنهم بشكل عام، ظلوا أوفياء لروح النص الأصلي، فلم يعمدوا أبدا إلى: "استبدال كلمة بعبارة أخرى، ولم يغيروا ترتيب الأسئلة أو سريان المقابلة. كما تمت الإشارة إلى كافة الاقتطاعات أو التقاطعات" [(32)]. وتكمن مساهمتهم الأساسية في طريقة وكيفية عرض المقابلات. ولكي يسمحوا للقارئ بالفهم، فقد قدمت نصوص قصيرة تعرّف بالأشخاص المستجوبين اجتماعيا. وذلك: "بهدف التذكير بالظروف الاجتماعية والشروط التي تخص صاحب الخطاب، سيرته، تكوينه وتجاربه المهنية"[(33)].

وتبرز العناوين والعناوين الفرعية، الأفكار الأكثر دلالة، تمنحها عملية ترتيب المقابلات معنى، من خلال وجهات نظر حول الواقعة ذاتها. وتتوقف عملية التحليل الحقيقي للمقابلات، عند هذا الحد. ومثلما هو الحال في أغلبية نصوص بورديو، فإن: "الملاحظة ليس من مهمتها السهر على مصداقية الفرضيات والتحقق من صدقها"، فهي ليست كاشفة في الأصل، لكنا "تنير التطور النظري فحسب. أما النصوص المكملة والمرافقة للمقابلات، فهي تستعمل في تحليل الآليات الاجتماعية التي تتحكم في خطاب المبحوثين- إقصاء مدرسي، رسوب في الضواحي الضخمة، سياسة السكن، تأثير وسائل الإعلام، الخ. إنها توجه وتخصص لتوجيه القراءة. لكن يعود للقارئ هو نفسه، أن يكوّن رأيه الخاص. إن المقابلات –مثلما تم عرضها- تتحدث بنفسها عن نفسها-. إن أهم ما في القصة، هي أنها تسمح بالفهم لأن: "الفهم والتفسير (عند ب. بورديو) لا يمثلان سوى شيئا واحدا" [(34)]. تشكل أساليب العمل هذه ثورة حقيقية، مقارنة بالممارسة السوسيولوجية التقليدية. كان بورديو وقتها يعتقد أن "لعنة العلوم الإنسانية"، تكمن في أنها تتعامل مع "موضوع يتكلم". وكان يحذر كل سوسيولوجي ضد خطورة: "أن يستبدل تماما وببساطة، أفكاره المبدئية بالأفكار الأولية التي يحملها أولئك الذين يبحثهم أو أن يمزجها باحترافية عالمة وموضوعية مضللة، تطبع السوسيولوجيا العفوية "للعالم" والسوسيولوجيا العفوية لموضوعه" [(35)]. لكن السوسيولوجي في كتاب "بؤس العالم"، يتوارى خلف كلام الأشخاص المبحوثين ويتقلص دوره في صورة كاتب عمومي: "يصاحب الرسائل التي ائتمن عليها" دون خيانتها.

بالأمس فقط كان بورديو يلمح إلى التباسات اللغة العامية. وهو يرى –فيما ينتقده آخرون- أن اللغة الخاصة بالسوسيولوجي، قد أصبحت أكثر من ضرورة. واتخذ على عاتقه عبء هذا التأكيد الذي تبناه إ. دوركايم، بقوله: "نعتقد بأن اللحظة قد حانت، لكي تتخلى السوسيولوجيا عن النجاحات الرهبانية، إذا جاز القول بهذه الصيغة. وتتبني الطابع الباطني الذي يليق بكل علم. إنها ستسترد هكذا كرامتها وهيبتها، مقابل ما ستخسره من حيث الشعبية" [(36)]. أما اليوم، فهو لا يرافع من أجل سوسيولوجيا الفهم فحسب، بل أنه يناضل من أجل سوسيولوجيا قابلة للفهم من طرف الجمهور العريض، متجهة صوب الانفعال كما نحو العقل. ويمكنها هكذا أن تقود محادثات التفكير والنظر التي تشكل شروطا مسبقة للفهم" [(37)]. وهو يشير إلى فرص التطابق الممكنة بين السوسيولوجيا والأدب. إذ يتم تشبيه وجهة نظر السوسيولوجي بوجهة نظر الروائيين من أمثال

فولكنر، جوس أو فرجينيا وولف. وهو يطلب من القارئ أن يقوم بمقاربة كتاب "بؤس العالم" ويتبنى المواقف نفسها، كما بالنسبة لنص فلسفي أو أدبي: "يجب مثلما يشير إلى ذلك فلوبير، أن نتعلم كيف ننظر إلى مدينة "إفيتو" (Yvetot) مثلما نلقي النظرة نفسها بعفوية على مدينة القسطنطينية: نتعلم مثلا، كيف نعطي العناية نفسها، بشأن زواج امرأة أستاذة من موظف البريد. ونبذل عناية كافية بصدد الحكي الأدبي عن علاقة زواج فاشلة، ونمنح أقوال عامل في الصناعة الأهمية التي تليق بها، مثلما تحرص على ذلك تقاليد قراءة الأشكال السامية في الشعر والفلسفة" [38].

لقد كان بورديو البارحة فقط، يحذر السوسيولوجي ويطالبه بتقديم "نسق من الإجابات الكلية عن الإنسان ومصيره"، ضد "وسواس التنبؤ" [39]. أما اليوم فيا للعجب، فهو يتبنى هذه الوظيفة عينها. إنه ينظر إلى "الرسالة" السوسيولوجية بوصفها الوسيلة التي تسمح "لأولئك الذين يعانون من البؤس، بالكشف عن إمكانية إرجاع معاناتهم إلى أسباب اجتماعية. ويشعرون هكذا، بأنهم ليسوا مسؤولين عن ذلك. وهي تمكن القادة السياسيين من تقديم علاج للمآسي الاجتماعية وتعرض عليهم: "الوسائل العقلانية الوحيدة التي يمكنهم استعمالها في هوامش المناورة المتروكة للحرية والمبادرة، أي للفعل السياسي" [40]. مثل هذا الموقف لا يقلل من ضرورة التذكير بموقف الأنثروبولوجي أوسكار لويس في كتابه "أبناء سانشيز" (Oscar Lewis, les enfants de Sanchez) [41]. حيث يتقاسم هذا الكاتب مع القارئ، الحياة اليومية لعائلة فقيرة من مدينة "مكسيكو عبر الحكايات المتقاطعة التي تم تسجيلها على شريط صوتي، بين الأب وأبنائه الأربعة. كان أ. لويس صاحب الكتاب، أقل وفاءا من بوريدو، إزاء الأفكار التي قام بالتقاطها. لقد حذف لويس أسئلته وقام بـ"اختيار، ترتيب وتنظيم الأدوات، لكي يجعل منها حكايات متناسقة". إن الأنثروبولوجيا التي كان أ. لويس يدافع عنها هي أنثروبولوجيا الفهم التي تعطي الكلمة للفاعلين من أجل استعادة مدلولات أفعالهم، بشكل أفضل. إنها أنثروبولوجيا ملتزمة، تحوّل الباحث إلى ناطق باسم البؤس والمعاناة والفقراء. إنها في متناول الجمهور العريض وهي تعبر في نظره عن: "مجيء جنس جديد من الواقعية الاجتماعية في الأدب" [42].

فقد أرسل أ. لويس إلى أمريكا اللاتينية عام 1943، حيث عاد منها بكتاب، ترك وقعا كبيرا على الجمهور:.إنها مجريات الحياة اليومية في قرية مكسيكية. قدمت العائلة سنشيز أول مرة في كتاب نشر عام 1959. وتم تتويج مؤلف "أبناء سانشيز (les enfants de sánchez) كأحسن كتاب أجنبي في فرنسا سنة 1963. في عمله البحثي هذا، أراد لويس أن يروي معيشة أسرة تنتمي إلى طبقة البروليتاريا في المكسيك المعاصر: وقد أجرى عدة مقابلات خلال عدة أشهر، مع كل عضو من أفراد أسرة سنشيز، حيث استخدم مسجلة صوتية لالتقاط أقوالهم. كان لويس يخضع إلى دافعية البحث عن التعبير الذي يكون وفيا قدر الإمكان لحقيقة معينة. وبذلك، يشكل كتابه وثيقة إثنوجرافية ذات أهمية قصوى، تتمثل في سرد سيرة حياة: الأب وأبنائه الأربعة من العائلة سنشيز، المكدسين في حجرة واحدة في عمارة آيلة للسقوط في مكسيكو، يعبرون عن تصورهم ووجودهم اليومي الخاص. تدفع بنا مطالعة كتاب أبناء سنشيز إلى التساؤل عن حياة عائلة سانشيز والمجتمع المكسيكي؟ تسمح دراسته

إذن، بالتساؤل عن أصالة هذا الكتاب الذي يعيد ربط العلاقة مع قصص السير الذاتية، رغم أنه يتفرد عنها في جوانب عديدة. ويكتشف القارئ عبر مختلف تلك الشهادات، ليس وحسب نمط الحياة العائلة المكسيكية ولكن حياة المجتمع المكسيكي برمته. وقد تصادفت ترجمة كتابه في فرنسا سنة 1963 مع الموجة الكبيرة للتاريخ الشفهي والمنهج البيوجرافي، مع إعادة النظر في النزعة الأمبيريقية والمناهج الكمية [43].

IV– من سوسيولوجيا البؤس إلى بؤس السوسيولوجيا

جاء تصميم كتاب "بؤس العالم" أكثر التباسا، لأنه يلعب على كافة الواجهات: السياسية، الأدبية واللغوية. ويشير بورديو دفعة واحدة إلى "شروط المنهج العلمي" التي يستنجد بها على امتداد الكتاب وفي فصل "الفهم" وفي "الحاشية"تحديدا؛ أين تظهر عبارات: "علم"، "علمي" أو "علم اجتماعي" أكثر من عشرين مرة. يصادر هذا العلم الاجتماعي على وجود "محددات اقتصادية واجتماعية" ويقترح الكشف عنها [44]. وهو يقدم بوصفه العلم الاجتماعي الأصيل الوحيد الذي يعارض: "العلم دون عالم، كما هو حال عملية سبر الآراء"، كما يعارض القناعات المزيفة المتأتية من الحس المشترك. وتقدم منهجية المقابلة المطبقة هنا بوصفها التقنية الوحيدة اللائقة والمقبولة. حيث يؤكد بورديو قناعته بشأن هذه الممارسة التي لا تجد تعبيرها المطابق، لا في الوصفات المنهجية الأكثر علمانية ولا في التحذيرات اللاعلمية عند متصوفة الانصهار الوجداني. ومن أجل استكشاف الكون الأيديولوجي، فلا شيء يعادل المقابلة الصارمة غير الموجهة. وعلى خلاف ما يؤكده بورديو، فهي لا ترتكز لا على "حرية خالصة"، "لا على استبعاد الملاحظ" [45]، لكنها تستند إلى المعرفة الغيرية، الاستماع النشط والصياغات الجديدة الوفية التي تمثل مرآة تعكس أفكار المبحوث.

تعمل تقنية المقابلة هذه كما يعمل الاختبار الاسقاطي، انطلاقا من تعليمة مبدئية، لكنها تختلف عنه إذ لا يبحث السوسيولوجي بواسطتها عن بنيات شخصية مخاطبه، بل عن النماذج الثقافية التي يحملها هذا الأخير حسب الجماعات الاجتماعية المختلفة التي ينتمي إليها. إذا أردنا اختبار تناسق الآراء الصريحة ستكون "المقابلة المحرجة" (stress interview) التي ترتكز على التناقضات المباشرة عند المبحوث أكثر ملاءمة [46]. ومن أجل قياس حدة وتواتر الاستعدادات التي تتجدد بواسطة المقابلات، فإننا سنلجأ إلى الاستمارة النمطية أو النموذجية التي تطبق على عينة ممثلة أو سبر الرأي. وأبعد من أن تتعارض نماذج هذه المقابلة فهي متكاملة. أما سبر الآراء الذي كثيرا ما يتم التهجم عليه، فهو لا يشكل سوى تقنية من بين تقنيات أخرى تستخدم في التقاط المعلومات التي يمكن استعمالها بشكل أفضل أو بشكل رديء. للتحقق من ذلك، من المفيد أن نعود إلى قراءة كتاب (Bourdieu P. et Darbel A., l'amour de l'art) [47]. إذ قام ب. بورديو مع أ. دربال، بدراسة إشكالية الفن في المجتمع الأوروبي بواسطة تقنية سبر الرأي. تناول الباحثان "جمهور المتاحف الأوروبية، خصائصه الاجتماعية والمدرسية، اتجاهاته إزاء المتحف وتفضيلاته الفنية. وشكلت الاستمارة التي صممت انطلاقا من دراسة مسبقة، بواسطة المقابلات نموذجا من هذا القبيل. وتناولت الدراسة علاقة الأشخاص المستجوبين بالفن وشروط إنتاجه الاجتماعية، بواسطة أسئلة عن عدد زياراتهم

إلى المتاحف، ظروف زياراتهم (بمفردهم، مع أفراد من الأسرة، في جماعة، مع مرشد فني، بمعية أستاذ أو محاضر، الخ) وتوقعاتهم (تسهيم الزيارة، إشارات إخبارية، الخ). لم يكن بورديو في تلك المرحلة من سيرته المهنية والعلمية يرى في تقنية سبر الآراء: "علما من دون عالم" (48) وكان مفهومه عن السوسيولوجيا أقل اختزالية، من الآن.

نعتقد أن كتاب "بؤس العالم" فريد من نوعه، غزير، مؤثر، مشوق ومثير. فقد عرف هذا المؤلف نجاحا معتبرا في المكتبات، بشكل لم يسبق له مثيل في العلوم الاجتماعية. إذ تم اقتباس الكتاب في المسرح وقد يصبح عملا في السينما مستقبلا. وهو يعتبر منذ الآن، إنجيل علماء الاجتماع التائهين، تحت ضغط المشكلات التي يواجهونها يوميا. وعلى المستوى المنهجي، فقد تعرض مشروع بورديو للانتقاد. لكنه حاول تجاوز الغل "الوضعي" وتخطي القواعد التي كان يرافع من أجلها في الأمس القريب. هكذا، على غرار إ. هوسيرل (Edmund Husserl) الذي هاجم التمدد اللامشروع للعلم، أبعد من حدوده الخاصة، ليهيمن على كافة حلقات الحياة البشرية. إن العلم يتجاوز حدوده المنهجية، عندما يتناسى نشاط الكائن البشري لفائدة موضوعية خالصة، تنفصل عن أساس الحياة الاجتماعية والثقافية، مشوهًا بذلك صورته الخاصة ويدعي المعرفة المطلقة. إن العلم يجاوز حدوده الأخلاقية، عندما يهمل ويقمع مشروعه الأصلي المتمثل في التحرير ويختزل الكائن البشري، في موضوع قابل للتلاعب به. ونذكر حسب ب. بورديو، أن أحد عيوب المقاربة الفينومينولوجية، في العلوم الاجتماعية، هو فشلها في الذهاب أبعد من "مجرد وصف ما يطبع "التجربة المعاشة" في الكيان الاجتماعي، أي تناول هذا العالم كحقيقة، من تلقاء ذاتها" (49). هكذا، يستبعد نمط المعرفة الفينومينولوجية، كل تساؤل حول الشروط الخاصة بالإمكان. بهذا المعنى، ليست الفينومينولوجيا شيئا آخر، سوى مساهمة في علم التمثل قبل–العلمي للكيان الاجتماعي، وليست علم الكيان الاجتماعي.

وهو يشرح ذلك بوضوح، في تمهيده الحواري الذي افتتح به كتاب ج. ميتر (Maitre J., Anthropologie d'un personnage) يقول بورديو: "أعتقد أن هذا الكبت العلماني يترصد بنا في تسييرنا العادي لبحوثنا. وعلى سبيل المثال، عندما تجرون مقابلة، يجب أن تفكّروا مثلا فيما فعلناه في كتاب "بؤس العالم"! إن تأكيدنا على أن تقنية المقابلة هي بمثابة تمرين روحي، قد كلفنا كثيرا... لقد فكرت دائما في هذا وأحسست بذلك دوما. لكن هناك نوع من الكبت الوضعي: "يجب أن تكون الاستمارة صارمة وموضوعية وتتسم بالحيادية وعدم الالتزام... ربما عرفتم هذا النوع من المازوخية الممتزجة بالفضيلة المهنية. لقد تطلب الأمر مني أن أبلغ من العمر عتيا وأمتلك قليلا من الشجاعة الاجتماعية الكافية (الأدبية)، لكي أصبح قادرا على القيام بهذا التجاوز" (50). لكن ما هو عدد الطلبة الذين سوف لن يحتفظوا بأسلوب تعامل مع السوسيولوجيا، يكون أقل إكراها من أسلوب رسائل المنهج؟ إنهم لن يضيعوا وقتهم في قراءة أعمال الآخرين، بشأن تصميم الإشكاليات والفرضيات. بل إنهم سينطلقون صوب السعادة الصغيرة وهم يثبتون المسجلة الصوتية في أحزمتهم، لكي يلتقطوا أقوال أولئك الذين يعانون. سيقومون باستجواب أصدقائهم وأقربائهم الذين يسهل عليهم التعامل معهم. وسيتحدثون مع الأشخاص المبحوثين وسيدافعون

عنهم، لكي يجعلوهم في وضعية مريحة. وسيقدمون شهاداتهم الملتقطة من الجمهور العريض في حينها، دون عناء البحث عن تحليلها. إن سوسيولوجيا البؤس التي تفتقر إلى "معرفة هائلة"، يمتلكها أمثال بيار بورديو وفريقه، قد لا تعكس سوى بؤس السوسيولوجيا.

في الأخير، بفعل التجربة التي جمعها السوسيولوجي ب. بورديو، فهو ينفصل عن نموذجين اثنين من المقابلة الشائعة: المقابلة المغلقة والمقابلة المفتوحة. لقد كان بورديو يطمح إلى قطع العلاقة مع الكتابات المنهجية التقليدية في البحث السوسيولوجي؛ تلك التي ليست –حسب اعتقاده– سوى نسخا باهتة شبه–علمية. إن غاية الباحث هي بلوغ المعرفة الخالصة التي تتموقع في العلاقة الاجتماعية التي تفرز تأثيراتها على المضمون. ولكي يتوصل السوسيولوجي إلى معرفة علمية حقيقية، يجب عليه أن يأخذ في الحسبان هذا المتغير. لكن بورديو يبين لنا كيف أن تأثير هذه العلاقة الاجتماعية في العمل السوسيولوجي، قد يتخذ عدة صور: علاقة هيمنة من الباحث على المستجوب (وبالعكس)، فرض الإشكالية وانحرافا عن فهم اللغة نفسها. وللتوصل إلى ذلك، يجب على الباحث أن يلجأ إلى مقاربة انعكاسية تسمح له بأن يلاحظ ويدير تأثيرات البيئة الاجتماعية التي تجري فيها المقابلة، بشكل مباشر. في المقام الأول، يتعلق الأمر ببناء اتصال غير عنيف مع المبحوث ومعرفة التأثيرات التي قد يولدها الباحث على المقابلة (كيفية تقديم نفسه، الفكرة التي يكونها المبحوث عن المقابلة...). إذ أن الهدف من ذلك كله، هو الحد من الانحرافات المحتملة التي تترتب عن طبيعة وتطبيق تقنية المقابلة بين الباحث والمبحوث...

على المستوى الميثودولوجي، تمثلت تقنية البحث في المقابلة المعمقة. لقد اتبعت هذه المقابلات، منهج تساؤل واستماع، أين يسهم الباحث في خلق شروط بروز خطاب خارق–للعادة، ينتظر شروط تحيينه. وفي الفصل الموسوم («Comprendre») يستعرض ب. بورديو أسباب أسلوبية البحث الذي تم إجراؤه: "لقد حاولنا إذن، بناء علاقة استماع نشطة ومنهجية، بعيدة كل البعد عن الحرية الخالصة للمقابلة غير الموجهة، كما عن صرامة الاستمارة"[51]. بهذا المعنى، يمكن أن يعتبر هذا الكتاب، احتجاجا ضد أسلوبية البحوث الإدارية، المبنية على التساؤل البيروقراطي الذي يطبع المقابلة [بسبب تناوب الأسئلة الطائشة والساخرة...] بعنف لا يمكن تحمله أحيانا، عندما يمارس بكل براءة، وربما بوعي كامل من قبل الشخص الذي يمتلك المشروعية الثنائية للنظام العلمي والنظام الأخلاقي. وعليه، فإن هذا الكتاب يشكل في الوقت ذاته، ردا على كل "الأعوان الاجتماعيين" الذين يخدمون الدولة ودرسا للباحثين الذين يكتفون بتطبيق مبادئ ميثودولوجية عتيقة، مستوحاة من الحلم الوضعي، من أجل براءة إبستمولوجية كاملة.

قائمة المراجع

1- Bourdieu P. et Al. (1993), Misère du monde, Paris, éd. seuil, p. 7.

2- المرجع السابق نفسه، ص 9.

3- عبارة دون مقابل مباشر لها في الفرنسية، تشير إلى شخص يعيش من عملية النصب والتحايل: "يشكل، يتذرع، ينصب، يسرق ويكذب. وهي جريمة ذات غاية نقدية مباشرة" (ص 181).

4- المرجع السابق نفسه، ص 716.

5- المرجع السابق نفسه، ص 9.

6- Blanchet A. et Gotman A. (1992), L'enquête et ses méthodes: l'entretien, Paris, éd. Nathan, p. 7.

7- Bourdieu P., Chamboredon et Passeron J-C. (1968), Le Métier de sociologue, Paris, éd. Minuit.

8- المرجع السابق نفسه، ص.ص 61-62.

9- المرجع السابق نفسه، ص 943. Bourdieu et Al., Misère du monde.

10- يتعلق الأمر هنا بفكرة أولية غنية بأفكار مسبقة ومفاهيم انفعالية، يمكنها أن تشير حسب قاموس روبرت الصغير (Petit Robert) إلى سبعة معاني مختلفة: 1- "الشفقة"، "بؤس حاد"، 2- "ما يجعل المصير يستأهل الشفقة"؛ حوادث بائسة، مؤلمة، قاهرة، 3- تقال عن حالة الإنسان وعن عدمه، 4- فقر مدقع، قد يصل حد الحرمان من الحاجات الضرورية للحياة، 5- بؤس فيسيولوجي، حالة شخص يعاني من سوء تغذية، 6- طابع ما يستحق الازدراء واللامعنى، 7- شيء يجلب المسكنة، والمذلة من الناحية الأخلاقية (ص 10-11).

11- المرجع السابق نفسه، ص.ص 10-11.

12- المرجع السابق نفسه، ص 916.

13- المرجع السابق نفسه، ص 906.

14- المرجع السابق نفسه، ص 905.

15-Labov W. (1978), Le parler ordinaire: la langue dans les ghettos noires des Etats-Unis, Paris, éd. Minuit.

16- المرجع السابق نفسه، ص.ص 907-908. Bourdieu et Al., Misère du monde.

17- المرجع السابق نفسه، ص 909.

18- المرجع السابق نفسه، ص 910.

19- Rogers C. (2008), La relation d'aide et la psychothérapie, Paris, éd. ESF.

20- المرجع السابق نفسه، ص. ص 916 -917. Bourdieu et Al., Misère du monde.

21- المرجع السابق نفسه، ص 495.

22- المرجع السابق نفسه، ص.ص 914-915.

23- المرجع السابق نفسه، ص 7.

24- المرجع السابق نفسه، ص 914.

25- المرجع السابق نفسه، ص 911.

26- المرجع السابق نفسه، ص 919.

27- المرجع السابق نفسه، ص 911.

28- المرجع السابق نفسه، ص 89.

29- المرجع السابق نفسه، ص 87.

30-Grignon C., Passeron J-C. (1989), Le savant et le Populaire, Paris, éd. Seuil, p.33.

31-Skinner B.F. (1971), *L'Analyse expérimentale du comportement*, éd. Mardaga.

32– المرجع السابق نفسه، ص 922.

33– المرجع السابق نفسه، ص 8.

34– المرجع السابق نفسه، ص 910.

35–المرجع السابق ذكره، ص 64. Bourdieu, Chamboredon et Passeron, Le Métier de sociologue.

36– المرجع السابق نفسه، ص 11.

37– المرجع السابق نفسه، ص 922. Bourdieu et Al., Misère du monde.

38– المرجع السابق نفسه، ص 910.

39– المرجع السابق نفسه، ص 924.

40– المرجع السابق نفسه، ص.ص 47–48. Bourdieu, Chamboredon et Passeron, Le Métier de sociologue.

41- Lewis O. (1963), les enfants de Sanchez, Paris, éd. Gallimard, p. 25.

42– المرجع السابق نفسه، ص 944. Bourdieu et Al., Misère du monde.

43– إن عبارات ومفردات النقاش الذي يدور بين لويس وأفراد أسرة سانشيز لم تتبلور، بحيث أننا نجدها معروضة بشكل واضح جدا، من قبل د. بيرتو في مقاله (Daniel Bertaux, «Ecrire la sociologie», 1979). لكن عندما يدعو هذا الأخير إلى تأسيس سوسيولوجيا أكثر مقروئية ونجاعة، فهو يؤكد بجلاء أن "العالم الاجتماعي لا يعرف قوانين، بالمعنى الذي تحمله هذه العبارة في العالم الفيزيقي". وعليه، فإنه "لا الاقتصاد، لا السوسيولوجيا ولا الأنثروبولوجيا، يمكنها أن تكون أبدا –بحكم طبيعتها وموضوعها ذاته– "علوما"...إنه يستخلص منها مجموعة من العبر التي تأخذ صيغة نكتة... "اكتبوا الأدب !".

44– المرجع السابق نفسه، ص 903. Bourdieu P. et Al., Misère du monde.

45– المرجع السابق نفسه، ص 906.

46-Jerome S. Bruner, M. Brewster Smith, Robert W. White (1956), Opinions and Personality, Ed. Wiley, pp. 64-65.

47-Bourdieu P. et Darbel A. (1969), l'amour de l'art, les musées et leur public, Paris, éd. Minuit.

48– المرجع السابق نفسه، ص 21.

49- Husserl E. (1977), La crise de l'humanité européenne et la philosophie [Conférence de Vienne, 1935], trad. P. Ricoeur, Paris, p. 43, 83.

50-Maître J. (1994), L'autobiographie d'un paranoïaque: l'abbé Berry (1878-1947), Paris, éd. Anthropos.

51– المرجع السابق نفسه، ص 906. Bourdieu et Al., Misère du monde